النموذج الثاني

إدارة الإعلام الديني وبلال بن رباح مؤذن الرسول ﷺ

بعيدًا عن العصبية ودعوىٰ الجاهلية، وتحت راية الإسلام ومظلَّته والدستور الذي أقره الوحي الإلهي يجلس العبيد بجوار السَّادة والمستضعفون بجانب العظماء، لا يفرِّق بينهم جنس أو نسب أو لون أو هيئة أو مكانة بل الكل سواء، يتفاضلون بالتقوىٰ والعمل الصالح، تجد الهيبة والوقار علىٰ وجوههم والإيمان راسخ في قلوبهم، إذا تحدَّثت عنهم توضأت وضوءك للصلاة، وإذا اقتربت من عالمهم قلت سبحان الله العظيم الذي خلق فسوَّىٰ والذي قدَّر فهدىٰ.

ومن أجل زيادة الإنتاج والدَّفع بعجلة التقدُّم إلىٰ الأمام تستثمر العقول البشريَّة وتقدَّم لها جميع الإمكانات المتاحة وغير المتاحة، ولكن أن تستثمر الأصوات البشريَّة حتىٰ تصبح بابًا من أهم أبواب التأثير في القلوب وتثبيت دعائم الإيمان والتوحيد بناء علىٰ عدة أسس ومعايير فهذا هو إبداع السُّنَّة النبوية التي علَّمتنا وتعلُّمنا دائمًا أن إدارة الأعمال ليست بمكانة فلان وسيادته، أو بحسن سمته وقوته، وإنما بمدىٰ تاثيره وحضوره وإبداعه وتفوقه علىٰ نفسه، وكأنما العمل الذي اختير له قد سجل باسمه، وما كان وما خُلِق إلا له، تنظر من قريب أو من بعيد ولكنك في النهاية لاترىٰ غيره ولا تشير إلا إليه.

فتحت ذلِّ الرِّقِّ والعبوديَّة، وتحت وطأة الظلم والاستعباد نشأ صاحب الصوت النَّدي التَّقي النَّقي العبد الحبشي لا قيمة له ولا وزن في هذا العالم الجاهلي الذي لا يعترف بأقدار الرجال إلا من خلال أحسابهم وأنسابهم ولكن بإيمانه وصدق توحيده فاق كل الرجال الأحرار فحاز قصب السبق وسجل الرَّقم القياسي في هذا المجال وانفرد بهذا العنوان الذي عنونت له في رأس الصفحة.

فهذا هو بلال بن رباح رضي الله عنه أول مؤذِّن للإسلام، كأني أسمع صوته بالآذان الآن في القرن الحادي والعشرين عبر الوسائل المسموعة والمرئيَّة منها ينبه الغافلين

ويقود الحائرين إلىٰ طريق الإيمان والتوحيد ليس بنبرات مصطنعة أبدعتها الأيدي البشرية ولكن صاغتها قدرة إلهية أرادت لها الريادة في هذا المجال، ومن ثم أشارت إليها يد المعصوم ﷺ بتولِّي إدارة الإعلام الديني الخاص بالآذان، لا علىٰ سبيل المنِّ والهبة، بل هي أسس ومعايير مكَّنته من هذه المكانة ومنها:

المعيار الأول: الصوت النَّدي

نقترب رويدًا رويدًا من أصحاب المهارات الخاصَّة والقدرات الفنية الهائلة واختيار الرجل المناسب في المكان والزَّمان المناسب، حيث تبدأ المدينة المنوَّرة رحلتها الجديدة مع توديع عالم الجهالة والكفر والضلال واستقبال عالم النور والإيمان والتوحيد، فمَنْ يكون رائد تلك المرحلة الذي يتولَّىٰ مهمة إعلام المسلمين بوقت أداء الصلوات الخمس ويصدح بالآذان في أول تجربة إيمانية يصرح فيها للمسلمين بأداء شعائرهم دون خوف أو اضطهاد، وهنا ينظر النبي ﷺ في وجوه أصحابه نظرة مَنْ يفكر قبل أن يشير ويرسل فيقع الاختيار علىٰ صاحب الصوت العذب النَّدىٰ والإيمان الراسخ القوىٰ، بلال بن رباح رضي الله عنه.

في حديث عبد الله بن زيد ورؤيا الآذان يقول له رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حق -إن شاء الله- فقم مع بلال فألقها عليه فإنه أندىٰ صوتًا منك»[1].

ولذلك يعلِّل ابن خزيمة في صحيحه لهذا الاختيار بقوله: «باب ذكر الدليل علىٰ أن مَنْ كان أرفع صوتًا وأجهر كان أحق بالآذان ممن كان أخفض صوتًا إذ الآذان إنما ينادىٰ به لاجتماع الناس للصلاة»[2].

إذًا لم تكن المسألة شهادة تقدير يمنحها النبي ﷺ للمتفوِّقين في مجال الدِّفاع عن الإسلام والصَّدِّ عنه وقوَّة الصبر والتحمُّل لإعلان راية الحق فقط، وإنما هي

(1) أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الصلاة - باب كيف الآذان 1/ 135 حديث رقم 499، والترمذى في جامعه - كتاب الصلاة - باب ما جاء في بدء الآذان 1/ 358 - رقم 189 من حديث عبد الله بن زيد مطولاً، وقال أبو عيسي: حسن صحيح.

(2) صحيح ابن خزيمة - كتاب الصلاة 1/ 189. والحديث رقم 362.

إمكانات خاصَّة تؤهِّل صاحبها لهذا الاختيار، حيث «عرف بجهارة صوته في الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبي ﷺ للآذان»[1].

واختيار الرسول ﷺ له هذه المهمة فيه دلالة قطعية علىٰ تقديره للمواهب وحسن توظيفها بما يتلاءم مع إمكاناتها.

ومن هنا «لنقول إن اختيار النبي إياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامَّة يسمعها كل يوم خمس مرات هو الشهادة لصوت المؤذِّن الأول بالسَّلامة من النفرة والنشوز المعيب، فما عهد محمد ﷺ خاصَّة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن، وكان ينكر كل نكير ويستريح إلىٰ كل جميل»[2].

المعيار الثاني: شعاره أحد أحد

تظل العلاقة حميمة بين العبد وسيده عندما يسمع ويطيع ويلبِّي أمر النِّداء فتجد له في القلوب مكانة، ولكن أن يبدي رأيًا أو يحكِّم عقلا أو أن يخرج عن دين الآباء والأجداد ويودِّع حياة الأصنام والأوثان ويتهكَّم بهما ويسجد لغيرهما فالرِّق قيد في عنقه، والعبودية إسار في يديه، فإما أن يخضع ويسلِّم ويعود إلىٰ رشده -كما يعتقدون- وإما أن يذوق العذاب بكافَّة أشكاله واختلاف ألوانه.

والاختيار صعب مرير مع أصحاب القلوب الضعيفة ولكن فيه لذَّة ومتعة مع مَنْ هان عليه جسده وأبت روحه الاستسلام، يشتدُّ به الأَذىٰ وتوضع الصخرة العظيمة علىٰ صدره، وتسلط الشمس عليه لهيبها ولكن تأبىٰ أنفاسه أن تصرخ بالألم أو أن تسجد لغير خالقها، فتتحوَّل الصرخات إلىٰ تسبيح، والأنين إلىٰ حمد وثناء، تنطق بهذا الشِّعار وتتحمل من أجله الويلات (أحد، أحد)، ولكن إذا كنت أيها العبد الحبشي تنطق بهذا الشعار وحدك الآن لا يسمعه إلا معذِّبوك فأنت اليوم في المدينة تصدح به علىٰ الملأ، تقف بكل عزَّة وشموخ في مكان عال ترفع به

(1) موسوعة العقاد الإسلامية (بلال داعي السماء ومؤذن الرسول) 3/ 532.

(2) السابق ص508.

صوتك حتىٰ يسمعه القريب والبعيد، فالتحيَّة تحيَّىٰ بأحسن منها: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ [النساء: 86]. وكأن الشعار قابله الاختيار، والهوان والعذاب قابلهما العظمة والرفعة، والصَّوت الخفي بالأمس أسمعت به الآن مَنْ به صمم، اختلطت ألفاظ الآذان بعظمك ولحمك حتىٰ غدا الآذان وبلال وجهان لعملة واحدة، أليس هذا معيارًا من أهم تلك المعايير التي تقدَّم بها بلال لنيل هذا الاختيار؟.

«عن عبد الله قال: إن أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبوبكر الصدِّيق فمنعه الله تعالىٰ بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأوقفوهم في الشمس، فما من أحد إلا وقد آتاهم كل ما أرادوا غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ﷻ وهان علىٰ قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وجعل يقول «أحد أحد»[1].

فلقد اعترف بلال بوحدانية الله عزّ وجلَّ وصمد وصبر أمام ألوان شتَّىٰ من العذاب ولم يردِّد لسانه سوىٰ «أحد أحد». لذلك كان صاحب أول لواء حمل أمانة الآذان وجهر به علىٰ مرأىٰ ومسمع من الأعداء.

«وقد ظلَّ بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حرَّ الظمأ ولا طول التعريض للشمس علىٰ بطاح مكَّة الملتهبة، وعجزت كل هذه المحن ان تثني عزيمته الحديدية، فلم يكن له من جواب علىٰ كل أمر يتلقَّاه من معذِّبيه إلا أن يردِّد قوله: أحد أحد: مشيرًا بها إلىٰ وحدانية الله الذي ليس له شريك»[2].

---

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه في المقدمة - باب فضل سليمان وأبي ذر والمقداد 1/ 53 رقم 150.
قال الشيخ الألباني: حسن، والحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة - باب ذكر بلال 3/ 320 - رقم 3832 من حديث عبد الله بن مسعود.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص.

(2) موسوعة العقاد الإسلامية ص3/ 514.

المعيار الثالث: علمه وتواضعه

فرق كبير بين مَنْ يولد مسلمًا وبين مَنْ يبحث عن الإسلام في كل ركن من أركان الدُّنيا، وكذلك بين مَنْ يرىٰ العلم في أن يسود به الدُّنيا وبين مَنْ يراه في جنَّة عرضها السماوات والأرض، والشاهد أن الآذان وإن كان يعتمد علىٰ نداوة الصوت في المقام الأول إلا أن العلم بما يهدف إليه وما يؤصِّله في قلوب المسلمين من وحدة الصَّفِّ يخرجه من حيِّز السَّماع لأجل الطرب والاستماع الىٰ عالم الفكر والتدبُّر، ومن ثم عالم الهداية والرشاد.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا»[1].

زد علىٰ علمه تواضعه الذي هذَّب من شخصيته وسما بأخلاقه حتىٰ لكأنك ترىٰ رجلًا من طراز خاص أكسبه العلم بهاء وجمالا وأكسبه التواضع إيمانًا ويقينًا، فلم ينس يومًا ما أنه عبد حبشي وأن الإسلام هو الذي أعلىٰ من شأنه ورفع من قدره، فكان صادقًا مع نفسه ومع غيره، وتأمَّل كلماته في هذا الحوار الذي يقول فيه أنا بلال بن رباح بلسان المتواضعين ولهجة الموحِّدين.

عن عمرو بن ميمون أن أخًا لبلال كان ينتمي إلىٰ العرب ويزعم أنه منهم فخطب امرأة من العرب فقالوا إن حضر بلال زوَّجناك، قال فحضر بلال فقال أنا بلال بن رباح وهذا أخي وهو امرؤ سيئ الخلق والدين فإن شئتم أن تزوِّجوه فزوِّجوه وإن شئتم أن تدعوا فدعوا، فقالوا من تكن أخاه نزوِّجه فزوَّجوه[2].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب بلال بن رباح مولىٰ أبي بكر رضي الله عنهما 3/ 1371 - رقم 3544 من حديث جابر بن عبد الله عن عمر رضي الله عنه موقوفًا.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك - كتاب معرفة الصحابة - باب ذكر بلال بن رباح 2/ 320 - رقم 5237، والبيهقي في السنن الكبرىٰ - كتاب النكاح - باب لا يرد نكاح غير الكفؤ إذا رضيت به الزوجة 7/ 222 - رقم 13788 كلاهما من طريق عبد الواحد بن زياد عن عمرو بن ميمون بلفظه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التخليص.

فالصوت النَّدي حبَّة طيبة وزهرة نديَّة بالعلم والتواضع ينتقل من عالم الإعجاب بتنغيم الحروف والكلمات الىٰ عالم السيادة والعظمة فيثمر ثمارًا طيبة، وقد ظهر أثر ذلك في حياة المسلمين الأوائل، وذلك حيث قدَّموا بلالاً ولقَّبوه بسيِّدهم وهو في الحقيقة عبد حبشي.

المعيار الرابع: التأثير في القلوب

تبعث إدارة الإعلام الديني وخاصة الإعلام بالآذان رسالة إلىٰ العالم أجمع أن هذا هو شعار المسلمين، هدفه الأسمىٰ الإعلام بدخول وقت الصلاة، وفي الوقت نفسه يرفع راية التوحيد والتآلف وترك التنابز والتخالف، تختلف الجنسيات وتتعدَّد اللغات ويظل الشعار واحدًا، يبعث في النفوس الرَّاحة والاطمئنان، ويعيد إليها الدفء والهدوء، ومع الصوت العذب النَّدي ترىٰ أثر ذلك واضحًا علىٰ القلوب قبل الوجوه، فإذا كنت تجد السكينة والسعادة في الصلاة فصوت بلال بن رباح كذلك.

فلقد امتلك بلال القلوب بصوته وعلمه وتواضعه، وخاطب النفوس قبل أن يخاطب الأسماع، فامتزج صوته بحسِّه ومشاعره فكانت النتيجة أن سكنت كلمات الآذان في قلوب الصحابة حتىٰ بلغ من شدة تأثُّرهم أن انهمرت عيونهم بالبكاء عند سماع صوته، حيث تذَّكروا معه صاحب الرسالة -صلوات الله وسلامه عليه- وإن كان لم يغب عنهم طرفة عين.

عن سعيد بن عبد العزيز وعن جابر وغيرهما أن بلالاً لم يؤذِّن لأحد بعد رسول الله ﷺ وأراد الجهاد فأراد أبو بكر منعه وحبسه فقال إن كنت أعتقتني لله فلا تحبسني عن الجهاد وإن كنت أعتقتني لنفسك أقمت فخلي سبيلي، وكان بالشام حتىٰ قدم عليهم عمر بن الخطاب الجابية فسأل المسلمون عمر بن الخطاب أن يسال لهم بلالاً ليؤذِّن لهم فسأله فأذَّن لهم يومًا أو قالوا صلاة واحدة، قالوا فلم ير يومًا أكثر باكيًا منهم يومئذ حين سمعوا صوته ذكرًا منهم لرسول الله ﷺ، قالوا فنحن نرىٰ أو نقول إن آذان أهل الشام عن آذانه يومئذ[1].

(1) سنن البيهقي الكبرىٰ - كتاب باب من قام بتثنية الإقامة وترجيع الأذان 1/ 419 - رقم 1827. =

فمع صوت بلال ترىٰ صورة الإسلام وجوهره ومبانيه ومعانيه، وإن كانت المعايير الأربعة السابقة من دواعي الاختيار فأضف إلىٰ ذلك «تقواه وغيرته علىٰ الصلاة والعباده ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار»[1].

وعندما تفتح باب المقارنة في هذا المجال فلا بد من أن تجد له فضل السبق والتفوُّق، وذلك بما خُصَّ به من معايير «ولم يزل له حظُّ التقدُّم علىٰ سائر المؤذِّنين في حضرة النبي حتىٰ قبض ﷺ، وميِّز بالتقدِّم عليهم لتقدُّمه في الإسلام ولجهارة صوته وحسن آدائه، وإن كان تقدُّمه في الآذان هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم»[2].

ومع توالي القرون عبر القرون والأجيال عبر الأجيال، ومع كل صوت جميل يغزو القلوب تجد اسم بلال بن رباح ساطعًا تراه العيون، لا يمكن أن تنسىٰ صوته صادحًا بالآذان، يؤثِّر في جموع المسلمين دائمًا في كل زمان ومكان، وإن كان قد غادر الحياة ولا عقب له فإنه وبصوته النَّدي قد ترك ورثة في كل قطر من أقطار الإسلام تذكره دائمًا عند كل آذان. «ولا تزال للمؤذِّن شروط تراعىٰ حتىٰ اليوم ليسمح له بأداء الآذان. فعليه أن يحفظ القرآن وأن ينزِّه اسمه وسمعته عن كل سوء، وأن يكون له صوت واضح وجهير ولهجة فصيحة ومخارج الحروف صحيحة، ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب في صدر الدعوة المحمَّديَّة والمسلمون علىٰ ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفي به بعد ذلك»[3].

= وفي صحيح البخاري - كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب بلال بن أبي رباح مولىٰ أبي بكر رضي الله عنهما - 3/ 1371 - رقم 3545 عن قيس أن بلالاً قال لأبي بكر: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعملي لله.

(1) موسوعة العقاد الإسلامية 3/ 532.

(2) السابق ص476.

(3) السابق ص511.